كشاجم

للاستاذ عبد الجواد الطيب

ما كان لنا — ونحن نؤمن بالإقليمية وأثرها فى الأدب — أن نتحدث عن شاعر مثل كشاجم الفلسطينى المنبت والنشأة على أنه شاعر مصرى ، يكتب فيه بحث فى الأدب المصرى ، لولا أن الرجل كان قد وفد إلى مصر فيمن وفد إليها من الشعراء كالمتنبى وأبى تمام وكثير عزة ، وغيرهم من الشعراء الذين حدث بينهم وبين البيئة المصرية من التفاعل ما جعلها تتأثر بهم ويتأثرون بها .

وإذا كان شاعر كالمتنبى مثلا أقام فى مصر فترة من الزمن ثم رحل عنها متبرما بها ساخطا عليها ، فإن شاعراً ككشاجم لم يتبرم بها هذا التبرم ، ولم يرحل عنها إلا ليعود إليها ، وقد شفه الوجد وأضناه الشوق :

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى والآن عدت وعادت مصر لى دارا

فهو إذن لم يلم بمصر إلماماً ، وإنما أقام بها وقتاً جعلها حرية بأن تكون داراً له ، ثم ما كاد يرحل عنها حتى عاد إليها صباً مشوقاً يتخذها مستقرا ومقاما .

فنحن حين نتحدث عن كشاجم كشاعر مصرى لا نفعل هذا لمجرد أن إقليم الشاعر كان تابعاً لمصر حياة كشاجم ، فهو إذن مصرى بالتبعية السياسية .

ليس هذا طبعاً هو الذى نعنيه ، فإنه وإن كانت هذه التبعية قد يكون لها أثرها فى الحياة الأدبية إلى حد ما ، إلا أن أثر البيئة الجغرافية بحدودها ومعالمها أعظم من هذا خطرا ، وأبعد مدى ، ولهذا حين أتى كشاجم مصر واتخذها مستقراً له ، وتأثر بطبيعتها ، وظروفها المادية والمعنوية — يمكن اعتباره من هذه الناحية شاعراً مصرياً ، أو على الأقل فيه جانب مصرى جدير بالدراسة .

* * *

لقد يكون سر اختيارى لكشاجم بالذات دون غيره كالمتنبى وأبى تمام — هو أن كشاجم لم يثر اهتمام الدارسين ، ولم يحظ بما حظى به غيره من عناية الباحثين من القدماء والمحدثين ، فالمتنبى مثلا كان موضع عراك ، وأخذ ورد ، ودرى هائل ، ظل صداه بل ظل امتداده إلى الآن ، فهو قد حظى بعناية القدماء كثيرا ، والمحدثين أكثر . أما كشاجم فهو شاعر مغمور أو كالمغمور ، فلا يجد المتتبع له إلا نتفاً مبعثرة هنا وهناك ، ومع هذا فكلها حديث مقتضب ، معاد : من أنه ولى فلسطينى ، ولد فإذا هو طباخ فى بلاط سيف الدولة ، وإذا هو أيضاً شاعر ظريف ، « كافه » من كاتب و « وشيئه » من شاعر و « وألفه » من أديب ... إلى آخر هذه الأحكام العامة التى تلقى جزافا دون تحقيق أو تمحيص . فأما نشأته وثقافته ، وأما أدبه وآثاره الأدبية ... فليس كل هذا فى نظرهم جديراً بالدراسة والعناية ... !!

لهذا يجد الباحث لذة — وإن كان يجد عناء أيضاً — فى أن يحاول أن يجلى صفحة من صفحات الأدب مطموسة المعالم أو هى كالمطموسة .

— ١ —

كشاجم : هو محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك (وشاهك أم السندى لا أبوه (١)) ، وكنيته أبو الفتح (٢) ، أو أبو الحسين (٣) ، وقيل بل أبو النصر (٤) ، ولا يعنينا هذا الاختلاف فى قليل ولا كثير .

وقد اتفقت جميع المراجع فى اسمه واسم أبيه ، وتكاد تتفق على اسم جده إذا ما صرفنا النظر عما أورده السيوطى فى حسن المحاضرة مع أنه : « محمود بن الحسين بن السدى بن شاهك » (٥) ولعل هذا تحريف لا يلتفت إليه بجانب ما أثبتته الكثرة من المصادر الأخرى ، ولاسيما بعدما أورده السمعانى فى كتاب الإنساب من قوله : « وأما السندى بن شاهك فهو كشاجم الشاعر ، يقال له السندى لأنه من ولد السندى بن شاهك الذى كان على الحبس

١ — نهاية الأدب ٣/١٠٠ ٢ — كشف الظنون ١ / ٥٩ ، ٣٥٤ شذرات الذهب ٣/٣٧ ، زهر الآداب ٤ ١٩٣ ، مزوج الذهب ٢ ٤٠٧ ، ٤ ٢٥٣ ، وفيات الأعيان ١ ١٧٩ ٣ — شذرات الذهب ٣ ٨٢ ٤ — حسن المحاضرة ١ ٢٤٠ ٥ — نفس المرجع والصفحة .

أيام الرشيد ببغداد » وقد يبدو فى الظاهر أن هذا الاختلاف شكلى مثل الذى قلنا فى الكنية ، ولكن الواقع أن تحقيق النسب له أهميته من حيث معرفة السلالة التى انحدر منها الشاعر ، مما قد يكون له تأثيره بشكل ما على ميوله واتجاهاته ، وبالتالى على ما ينتجه من أثر فنى ، فالسندى بن شاهك هذا هو إذن جد كشاجم ، وهو الذى ذكر الجهشيارى أنه كان يلى الجسرين ببغداد فى عهد الرشيد (١) وقد ذكر ابن ميسر أنه كان هندى الأصل وكان صاحب الحرس (٢) .

هذا ما يتعلق باسمه وكنيته ونسبه وأصله .

أما اللقب الذى اشتهر به فهو « كشاجم » وقد قالوا فيه وفى تحليله : « إن الكاف من كاتب ، والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جواد والميم من منجم » وقد يكون لنا وقفة عند هذا اللقب وتحليله بهذه الصورة عند الحديث عن ثقافة الرجل فى العدد القادم .

— ٢ —

ولد كشاجم بالرملة فى فلسطين ، وتاريخ ميلاده فى غاية الغموض ، إذا لم يحدده مرجع واحد من المراجع التى بأيدينا ، كما أن طفولته ونشأته كذلك غامضة إلى حد كبير ، ولا نعلم شيئاً ذا بال عن أسرة الشاعر ، وهى بيئته الأولى التى ترعرع فيها ، والتى أرضعته وغذته حتى تكون خلقاً سوياً جم ، ولا شك ، فى طوايا نفسه كثيراً من آثار هذه البيئة الخاصة التى نشأ فيها أول ما نشأ ، وهذه معلومات لا يستهان بها ، وقد كانت حرية أن تسهل علينا مهمة الدرس والتحقيق ، ولكن مما يؤسف له حقاً أن الرجل لم يجد عناية من كثير من المؤرخين ، وأصحاب التراجم ، ومن ترجم له منهم جاءت ترجمته مقتضبة كل الاقتضاب ، ولا تلقى على حياة الشاعر إلا أضواء باهتة ، لا تصور النواحى الهامة من حياته ، وليس من شأنها أن تساعد على تصويرها تصويراً دقيقاً ، ومع هذا فالباحث لا يسعه إلا أن يحاول الانتفاع بهذه الأشعة ثم يحاول بعد هذا أن يسد ذلك النقص بشىء من الأناة والصبر ، وتعمق النصوص واستنباطها .

— ٣ —

وإذا كان مترجموه قد أهملوا سنة ميلاده ، فقد اضطربوا فى سنة وفاته بين : سنة ٣٦٠ ، سنة ٣٥٠ ، سنة ٣٣٠ هـ ، ولعل أضعف هذه الآراء هو الرأى الأخير ، لما ذكره من تعرضوا لترجمته من أنه كان طباخا لسيف الدولة الذى لم يظهر على مسرح السياسة قبل هذا التاريخ ، أما الرأيان الأولان فقد يصعب الترجيح بينهما وهما على كل حال متقاربان إلى حد ما ، ولكن قد وردت فى ديوان كشاجم إشارة عابرة فيها تعريض بكافور الإخشيدى حين يهجو غلاما له اسمه كافور :

حكيت سميك فى برده وأخطأك اللون والرائحة(١)

فإذا صح أن هذا التعريض حصل فى أثناء ولاية كافور (٥٥ ـ ٥٧ هـ) فقد يكون فى هذا الاحتمال ما يستأنس به فى ترجيح الرأى الأول ، وهو أن وفاة كشاجم كانت سنة ٣٦٠ هـ ، هذا عن وفاته ، أما مولده فقد سبق أن قلنا إن أحداً من المراجع لم يلق ضوءاً عليه ، وهذه الظاهرة — ظاهرة عدم الاهتمام بتاريخ الميلاد — كانت شائعة فى هذه العصور القديمة ، التى لم تظهر فيها العناية بالمواليد والوفيات على أساس ثابت ، كما هو الشأن عند الدول المتحضرة الآن . ثم إن التاريخ — فيما يبدو — كان أرستقراطيا لا يحفل كثيراً بغير الملوك والأمراء ! فإذا ولد هذا الطفل أو ذاك من عامة الشعب لا يعيره أدنى التفاتة ، ولكن إذا قدر لهذا الطفل أن يكون فى مستقبل أيامه وزيراً خطيرا ، أو عالماً كبيرا ، أو أديباً مشهورا ... فهنا يقف التاريخ فى أرستقراطيته الساذجة ، ويعير هذا الرجل شيئاً من عنايته ؛ ومن هنا يجد الباحثون صعوبة ومشقة فى تحقيق تراجم كثير من الأدباء والعلماء ، ودراسة آثارهم الأدبية والعلمية ، فهم يجدون دائما حلقة أو حلقات مفقودة ، كم يودون لو عثروا عليها فتنير أمامهم الطريق .

وهكذا نجد التراجم قد سكتت عن مولد هذا الشاعر وطفولته ونشأته ، وبيئته الأولى وفجأة يقفز إلى الوجود طباخا

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٣٦ ٢ أخبار مصر لابن ميسر ورقة ٣١٣ ، ١٦ ، ٣٥

١) المراد بالكافور هنا الكافور الطيبى لا كافور الاخشيدى بدليل العطر الثانى (الرسالة)